الفصل الخامس

عبد الناصر يقول

obeikandl.com

obeikandl.com

(لم تكن هناك ديمقراطية كاملة.. أو كافية لكن جمال عبد الناصر لم يكن ديكتاتورًا)

«كانت السنوات الثلاث الأخيرة من حياة عبد الناصر ذروة المسيرة، وليس هناك مشهد أعظم من البطل في أوج محنته يتجاوزها ليشق طريق الخلاص.

ولقد شمت الكثيرون وتشفى الكثيرون. وتآمر عليه أقرب الناس إليه، وأعلن واحد منهم أنه قد انتهى بالهزيمة، وهلل عميد الإمبريالية جونسون وقال: لقد انتهت القضية.. والرجل.

ولكن قام «بروميثيوس» بعدما أثخنته الجراح وعصفت به الآلام واسترد كل نفسه واستعاد كل ثقته وحملها إلى الناس جميعًا، ووقف على قدميه.. نفس العملاق بنفس القوة والجبروت.

وحينما خانه قلبه في النهاية ورحل عن عالمنا كان يحمل سيفه ويقاتل مستميتًا... عاش الفارس ومات الفارس، وستظل كل الأجيال تروي سيرته».

محمد عودة[32]

(32) من مقدمته لكتاب «من محاضر اجتماعات عبد الناصر العربية والدولية 1967 ـ 1970» (إعداد: عبد المجيد فريد)

obeikandl.com

كما سبق أن قلنا فحتى التيار السياسي ـ الأيديولوجي الوحيد الذي لم يلتقِ به عبد الناصر في نقطة (أو قضية) كبرى ما، وهو التيار الليبرالي ـ الرأسمالي، التقى به الناصريون من بعده في قضية هي «الديمقراطية».

وأكثر من ذلك أن عبد الناصر نفسه، في المراحل الأخيرة لمسيرته، كان قد اقترب بالفعل من هذا التيار، في القضية ذاتها.

ولم يكن ذلك كلامًا عامًا ـ أو قد يفهم ضمنًا ـ لعبد الناصر. لم يكن إشارات عابرة، أو نقلًا عن غيره، إنما مقترحات محددة واضحة، وتصورًا متكاملًا، فالوثائق متوافرة، ويرد فيها تعبيره عن رؤيته، على لسانه نصًا بالحرف الواحد.

من ذلك: الوثائق التي قدمتها د. هدى عبد الناصر، وأحدثها سلسلة تحت عنوان «جمال عبد الناصر. الأوراق الخاصة»[33]، وهي ذات أهمية فائقة، في هذه المسألة وفي مختلف القضايا.

ومن قبل: الوثائق التي قدمها عبد المجيد فريد[34]، وهي جديرة بطبعات أخرى واطلاع واسع وبدراستها، وهي أيضًا تشتمل على هذا الموضوع وكثير غيره.

وسوف نذكر. في هذا الموضع. جانبًا قليلًا، لكن واضحًا، مما جاء على لسان «جمال عبد الناصر» فيما يخص موضوعنا.

لكن قبل أن نذكر جزءًا مما «قال جمال عبد الناصر نصًا»، يجب أن نشير:

(أولًا): إلى أن الكتاب كما يحدد تقديمه: يتضمن محاضر مطولة ومقتطفات حرفية لأهم اجتماعات جمال عبد الناصر والقيادة السياسية العليا في مصر، على الصعيدين العربي والدولي (ما بين 1967 ـ 1970). وكان عبد المجيد فريد (الأمين العام للرئاسة منذ 1959 حتى 1970) قد دون هذه المحاضر بخط يده وقتئذ.

(33) عن المكتبة الأكاديمية ـ القاهرة.

(34) عن مؤسسة الأبحاث العربية ـ بيروت، في (1979 الطبعة الأولى) و(1985 الطبعة الثانية).

ونشير (**ثانيًا**): إلى قول «عبد المجيد فريد» عما سنورده على لسان جمال عبد الناصر، أن ذلك ضمن لقاء الرئيس مع أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي. أعلى سلطة سياسية في البلاد خلال السنوات الأربع الأخيرة من عهد عبد الناصر. يومي الخميس والجمعة 3 و4 أغسطس 1967. وهو أول اجتماع بعد الهزيمة في 5 يونيو 1967، أي أن اللقاء كما يقول فريد «عقد في ظروف سياسية غير عادية فجعلت منه اجتماعًا غير عادي للجنة العليا».

متسائلًا: «ولكن هل تجاوب مع جمال عبد الناصر رفاقه أعضاء اللجنة الستة؟. هل وافقوا على اقتراحه؟»... الحقيقة للأسف كما يقول: «دارت المناقشة ساعات وساعات.. ولكنها لم تصل إلى قرار نهائي، وإنما وضح لعبد الناصر من واقع حوار الأعضاء والآراء التي هاجمت اقتراحه أنهم لا يرحبون بمشروعه بل يرون أن المشروع المقترح يفتح على النظام كله العديد من الثغرات السياسية، كما أجمعوا على أن هنالك خطورة في تعديل النظام قبل إزالة آثار العدوان. في الوقت نفسه رفض عبد الناصر أكثر من اجتهاد منهم لسحب اقتراحه عن هدفه ومساره الأصلي».

وفي موضع آخر يقول بأمانة: «في رأيي أنه لو وجدت أقوال عبد الناصر من يدعمها ومن يلتقطها إلى النور، إلى حيز التنفيذ، لتبدلت أمور كثيرة، ولكن ما حدث كان انفجارًا ضخمًا مروعًا غطى صوته على الأفكار الصادقة والآراء الصائبة التي قيلت في تلك الليلة، حتى ولو كانت من عبد الناصر».

قال جمال عبد الناصر في الجلسة الأولى للاجتماع[35]:

«.. نطلع من القصة كلها أن النظام المقفول سيؤدي بنا في النهاية إلى نظام توريث. لذلك علينا الآن واجبان:

الأول: هو أن نبحث عن نظام system جديد لنا.

(35) الخميس 3 أغسطس 1967.

obeikandi.com

الثاني: هو أن نحدد الأخطاء الرئيسية الموجودة في البلد في الوقت الحاضر ونشوف ازاي نصلحها.

ما يقال في البلد هذه الأيام اننا بناكل بعض. النظام بياكل نفسه، والمستقبل بهذا الشكل سيكون خطيرًا جدًا. لذلك أنا رأيي أن نعمل فورًا على تغيير النظام الـ system اللي ماشيين عليه لأنه لازم فيه خطأ. والمعروف أن نظام الحزب الواحد تحدث فيه دائمًا صراعات في القمة على السلطة، ولدينا العديد من الأمثلة في العالم، آخرها مثلًا ما حدث في الصين وهو مثال واضح. أنا شايف انه لم يبق في عمر معظمنا أكثر من عشر سنوات، وخاصة بالنسبة لي مع المرض اللي عندي ومع الضغط والجهد الذي أتعرض له. لذلك أنا شايف ضرورة تغيير نظامنا بحيث لا يسمح النظام الجديد لشخص أو لشلة غير واعية أو جاهلة سياسيًا أن تحكم البلد. البلد التي أعطتنا ثقتها المطلقة بلا حدود. طبعًا التغيير الذي أقصده لا يمس اتجاهنا الاشتراكي، لأننا في الحقيقة نكاد نكون انتهينا من التطبيق الاشتراكي في أغلب القطاعات باستثناء قطاع المقاولات وقطاع التجارة. بعد ذلك يبقى عملنا مركزًا أساسًا على خطط التنمية التي نضعها وعلى متابعة تنفيذها..».

ثم قال جمال عبد الناصر مختتمًا هذه الجلسة الأولى [36]:

«إذا كنا عايزين حقًا توفير الأمن والسلام زي ما قلتم نسمح بوجود معارضة في البلد. فطبعًا لا أتصور في تكوين هذه المعارضة اننا نقول إن زكريا يمثل اتجاهًا معينًا وأمامه علي صبري يمثل اتجاهًا آخر. وبذلك يصبح هناك حكم ومعارضة. لو نعمل كده يبقى بنعمل مسرحية المعارضة. المعارضة الحقيقية هي اننا نجيب الذين يعارضونا

(36) بتاريخ 3 أغسطس.

فعلًا في الوقت الحاضر، مثل بغدادي وكمال حسين وكلاهما أصلًا منا وسبق أن وافقا على الميثاق، ونسمح لهما بتكوين حزب معارض ونسمح لهما بجريدة تعبر عن رأي الحزب. من جانبنا نعيد تنظيم صفوفنا ونعمل حزب الاتحاد الاشتراكي، ثم ننهي الدورة البرلمانية الحالية ونجري انتخابات جديدة في شهر ديسمبر هذا العام على أساس قائمتين للحزبين. واللي يكسب الانتخابات يستلم الحكم والثاني يشكل المعارضة. على أن يبقى الجيش كجهاز محترف وكذلك البوليس.

أنا شايف لو نفذنا هذا الاقتراح سنشفى من كل الأمراض الموجودة بيننا في الوقت الحاضر، وسيتحرر كل واحد فينا من الخوف الذي سرى بيننا. من أكبر هيئة إلى أصغر هيئة. أنا ضد نظام الحزب الواحد لأن الحزب الواحد يؤدي غالبًا إلى قيام ديكتاتورية مجموعة معينة من الأفراد.

آخر كلامي في هذا الموضوع اننا إن لم نغير نظامنا الحالي سنمشي في طريق مجهول ولن نعلم من سيستلم البلد بعدنا..».

قال جمال عبد الناصر أيضًا، في الجلسة الثانية للاجتماع[37]:

«في رأيي أن يشكل الاتحاد الاشتراكي حزبًا، على أن يسمح بتكوين حزب آخر يمثل المعارضة. هذا الشكل السياسي لا يمنع حدوث صراعات داخل تنظيمنا الاتحاد الاشتراكي، ولكنها ستكون صراعات لها طبيعة أخرى نظرًا لوجود حزب منافس أمامه. وكما قلت أمس نسمح لبغدادي وكمال حسين أن يشكلا حزب المعارضة على أن نوفر له نفس الإمكانيات والتسهيلات الممنوحة للاتحاد

(37) الجمعة 4 أغسطس 1967.

obeikandl.com

الاشتراكي، بما في ذلك حق إصدار جريدة تنطق باسم حزبهم. ومن رأيي أنهما رجال وسيتصرفان كرجال لأنهما معنا منذ أول الثورة.

أما بالنسبة للمفهوم الاجتماعي للحكم، فطبعًا سيكون طبقًا لمفهوم الحزب الذي سيكسب الانتخابات القادمة التي يمكن أن تجري خلال شهر ديسمبر القادم بعد فض الدورة الحالية لمجلس الأمة خلال نوفمبر..».

هذا ما انتهى إليه جمال عبد الناصر.

ولكن كما يقول أمين اللجنة التنفيذية العليا ومعد الكتاب: (لم يؤيده زميل، ولم يدعم اقتراحه أحد من رفاقه لأسباب شتى اختلفت من عضو لآخر. وسيظل التاريخ شاهدًا وحكمًا على أقوال عبد الناصر وعلى أقوال رفاقه في تلك الجلسة التاريخية).

وأضيف إلى قول عبد المجيد فريد:

كان واضحًا لمدى إصرار جمال عبد الناصر ووضوح وصفاء وتكامل رؤيته، أنه لم يستجب لهم - لإجماعهم! - لكنه أرجأ لفترة... وأنه لم يتراجع عن أفكاره، إنما فحسب: أجّل.

وكان على «الناصريين» بالطبع، أن يبدأوا من حيث انتهى جمال عبد الناصر - لا من حيث بدأ أو بدأت ثورة 23 يوليو بالضرورة - وسواء في هذه القضية أو في كل القضايا.

بل من حيث «الذي انتهى إليه ناصر، هو بالذات».

وليس «يوليو بعامة».

وهذا معنى الناصرية.

وهذا مغزى تسمية «الناصرية» و«الناصريين».

ولا يوجد معنى ومغزى آخر.

هامش وعناوين:

ثم قد يكون مفيدًا أن نتوقف في ختام هذا الفصل أمام هامش؛ إذ له أهميته، ثم عناوين وضعها عبد المجيد فريد بنفسه لجوانب من هذه المناقشات؛ لأن لها دلالتها.. لا سيما أنها من قبيل التلخيص أو الخلاصة، ونحن هنا لسنا في مجال تفصيل أو إسهاب.

أما الهامش فيرصد أن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي هي السلطة العليا للحكم خلال السنوات الأربع الأخيرة من عهد جمال عبد الناصر. تكونت بالتعيين في أول عهدها حتى برنامج 30 مارس 1968 الذي نص على ضرورة انتخاب كافة مستويات التنظيم السياسي، فشكلت بالانتخاب من بين أعضاء اللجنة المركزية.

في أول الأمر، خلال مرحلة التعيين، تكونت من الرئيس وأعضاء مجلس الثورة الباقين في الحكم معه، مضافًا إليهم رئيس الوزراء، فضمت عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، وزكريا محيي الدين، وأنور السادات، وحسين الشافعي، وعلي صبري ثم رئيس الوزراء صدقي سليمان.

وبعد انتخابات عام 1968 تكونت من عبد الناصر، وعلي صبري، وحسين الشافعي، والدكتور محمود فوزي، وأنور السادات، ورمزي استينو، وضياء الدين داوود، عبد المحسن أبو النور، لبيب شقير.

أما العناوين:

زكريا محيي الدين:

النظام المفتوح هو الأصلح لنا... وأتوقع من الحزب الآخر أن يقوم بنبش الماضي، وقد يتلو ذلك تجريح للهيئة القيادية للبلد.

obeikandl.com

عبد الناصر:

تجريح القيادات يتم الآن داخل المنازل ومن الأفضل أن يتم خارجها.

أنور السادات:

لا أوافق على عملية الفتح عن طريق الحزبين؛ لأنها ستكون فتحًا للكلاب اللي عايزة تنهش في الحكم.

علي صبري:

ليست هناك مخاوف من التجربة الجديدة طوال وجود عبد الناصر، ولكن الخطر فيما هو بعد عبد الناصر.

عبد الناصر:

لا أطالب بتفتح الزهور ليسهل تمييزها وقطفها، ولكني أقسمت ألا أساوم وأن أقول رأيي بصراحة ولو على رقبتي.

حسين الشافعي:

لا أتصور أن نغير نظامنا قبل إزالة آثار العدوان.

obeikandl.com